﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ٢١﴾ [العنكبوت: 21]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

النّشأةُ الآخرة لتعذيبِ أهلِ التّكذيبِ عدلًا ولإثابةِ أهلِ الإيمان فضلًا

لَمّا ذكَرَ اللهُ تعالى النَّشْأةَ الآخِرةَ؛ ذكَرَ ما يَكونُ فيها، وهو: تعذيبُ أهلِ التَّكذيبِ عَدلًا وحِكمةً، وإثابةُ أهلِ الإنابةِ فضْلًا ورَحمةً فقال: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُقۡلَبُونَ﴾: (قلب) أصلٌ يدلّ على رَدِّ شَيْءٍ مِنْ جِهَةٍ إلَى جِهَةٍ[2]، وقلَبَ الشّيءَ إليه: ردَّه وأرجعه، وصرفه عن وجهٍ إلى وجهٍ، أي: غيّر حاله إلى عكسِ ما كان، كقلبِ الثّوب، والانْقِلابُ: الرُّجوع، وعبّروا عنه بالرُّجوع إذْ هو عكسُ الذَّهاب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ﴾، والانقِلابُ: الانصراف[3]، والمُنْقَلَب: مَصيرُ العباد في الآخِرَة، والانْقِلابُ إلى اللَّهِ ﷻ: المَصيرُ إليه والتَّحَوُّلُ[4]، والمعنى في الآية: وإليه تُرجعون وتُردّون بعد موتكم، فيحاسبكم على أعمالكم[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تعذيبُ أهلِ التّكذيب عدلًا وحكمة، وإثابةُ أهلِ الإنابةِ فضلًا ورحمةً

يذكر البيانُ الإلهيُّ أنّه تعالى ذِكْرُه يعيدُ خَلْقَ عباده من بعد فنائهم، فيعذّب يوم القيامة بعدله من يشاء تعذيبَه منهم على ما أسلفَ من جُرمِه وتكذيبِه في أيام حياته، ويَرْحمُ بفضلِه من يشاء رحمتَه منهم ممّن تاب وآمن وعمل صالحًا[6]، أو أنّ المعنى: أنّه يعذِّبُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 42.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قلب).
(3) الرّاغب، المفردات، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ، وأحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (قلب).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والزَّبيديّ، تاج العروس: (قلب).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 22، والمَراغيّ، تفسير المَراغيّ: 20/ 128، وسيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 25.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 22، والزَّمَخْشَرِيّ، الكشّاف: 3/ 449.

في الدنيا من يشاءُ ويرحمُ من يشاء، فإنْ تأخَّرَ عنكم ذلك أيها المخاطَبون فلا تظنّوا أنّه فات، فإنَّ إليه إيابَكم، وعليه حسابَكم، وعندَه يُدَّخر ثوابُكم وعقابُكم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الفصل في قوله ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾:

مـن ثَـبَـتَـث له الـقـدرةُ على البَدْء والإعادة ثَبَتَتْ له القدرةُ على التّعذيب والإثابة

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ قوله: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ عمّا قبله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾، ولم يربطهما بعاطف؛ لِما بينهما من كمالِ اتّصالٍ؛ إذ جاءت جملة ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ تكملةً لما قبلها فقد جاءتْ لبيانِ ما بعد النشأة الآخرة[2]، لأنّه لمّا ثبتتْ قدرةُ اللّهِ على كلّ شيء – ومنها النّشأةُ الآخرة للحساب والجزاء – نتجَ عنها قولُه: ﴿يُعَذِّبُ﴾ بعدله ﴿مَن يَشَآءُ﴾ و﴿وَيَرۡحَمُ﴾ بفضله ﴿مَن يَشَآءُ﴾ مُهَدِّدًا به بعد البيان[3].

دلالة التّعبير بالفعلَينِ المضارعَين:

بيانٌ لقدرةِ الإله على العذابِ والرّحمة بأنها حاضرةٌ ومستمرّةٌ في كلّ لحظة في الدّنيا والآخرة

أتى البيانُ القرآنيُّ بالفعلين ﴿يُعَذِّبُ﴾ و﴿وَيَرۡحَمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ﴾؛ بصيغة المضارع؛ ليشيرَ إلى أنّ عذابَه ورحمتَه بمن يشاء أنْ يعذِّبه أو يرحمه لا ينقطعان سواءٌ أكانَ في الدّنيا؛ فهي دارٌ تشتملُ على نِعَمٍ لا تُحصى، وعلى ابتلاءاتٍ ومصائبَ لا تنقطع، أم كان في الآخرة فهي دارُ الخلود في العذاب أو النّعيم اللّذَينِ لا ينقطعان، وهذا يعكسُ قدرةَ اللّهِ المطلقة على العذابِ أو الرّحمةِ في أيّ وقتٍ يشاء، وبهذا يَشْعُرُ القارئُ بأنَّ هذه القُدرةَ الإلهيّة حاضرةٌ ومستمرّةٌ في كلِّ لحظةٍ في الدّنيا والآخرة، بما يكون فيه تهديدٌ وتحذيرٌ للكافر، وتبشيرٌ وتثبيتٌ للمؤمن.

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 42.

(2) القونَويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البَيضاويّ: 15/ 36.

(3) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 417.

معنى ﴿مَن﴾ ودلالتها:

تعميمٌ لكلِّ مَنْ حكمتِ المشيئةُ الإلهيّة بتعذيبه أو برحمته

﴿مَن﴾ في قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ اسمُ موصول بمعنى الّذي، يفيدُ العموم، وفي هذا بيانُ المرادِ بمَنْ يعذِّبهم اللّهُ تعالى وبمن يرحمهم، أي: يُعذِّبُ كلَّ من يشاءُ اللّه تعالى أن يُعذِّبه، ويرحمُ كلَّ من يشاء اللّه أنْ يرحمه، كما يفيدُ التّركيزَ على الصِّلة، وهي المشيئةُ الإلهيّة الحكيمة في التّعذيبِ والإثابة؛ لأنّ القرآن يأتي بالاسم الموصول عندما تكون صلتُه هي الّتي عليها مدارُ الحكم، ويفيدُ كذلك التَّشويقَ لمعرفةِ هذه الصّلة، لِما يتضمّنُه الاسم الموصول من الإبهام.

سِرُّ التّعبير بفعل المشيئة مادّةً وصيغةً:

اقترانُ المشيئةِ الإلهيّةِ بالهيبةِ والحكمةِ والعدْلِ

لم يقلِ البيانُ القرآنيُّ: (يعذِّبُ الكافرَ ويرحمُ المؤمن)، وإنّما عبّر بفعل المشيئة فقال: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾؛ وذلك إظهارًا للهيبة الإلهيّة[1]، وهذا أبلغُ في التّخويف؛ لأنَّ اللّهَ أثبتَ بهذا إنفاذَ مشيئته، وأنّه إذا أرادَ تعذيبَ شخصٍ فلا يمنعُه منه مانعٌ[2]، وأبلغُ في الدَّلالة على الحكمة الإلهيّة في الحسابِ وفْقَ ما يستحقّ الإنسان؛ إذ المشيئةُ الإلهيّةُ مقرونةٌ بحكمته سبحانه، أي: كلّ من كان جديرًا ومستحقًّا لذلك، فإنّ مشيئةَ اللّه ليستْ عبثًا، بل هي منسجمةٌ مع الاستحقاقِ والجدارة، وكذلك فإنّ هذا التّعبير أبلغُ في التّربية؛ لأنّه يتضمّنُ مع التّرهيب معنى التّرغيب؛ فإنّه سبحانه في الوقت الّذي يُهَدِّدُ فيه بالعذاب يلوِّحُ لعبادِه حتّى الكافرين بأنّ رحمتَه تعالى ما زالتْ متاحةً لهم إنْ تابوا وأصلحوا؛ ليرتدِعوا وليؤمنوا، ثم يلوِّحُ لهم برحمته سبحانه ليرغِّبَهم في طاعته ويُلفتَهم إلى الإيمان به[3]، وإضافةً إلى ذلك كلّه فإنّ تعليقَ العذابِ والرحمةِ

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 5/ 380.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 42.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 18/ 11121.

بالمشيئة للدَّلالة على أنّه لا يجبُ عليه شيءٌ سبحانه، وإنَّ تعيينَ العذابِ للمشرك يقوم بناءً على الوعيد الأكيد[1]، وأتى فعل المشيئة بصيغة المضارع الّتي تدلُّ على التّجدّد والاستمرار؛ تناسبًا مع فِعْلَي ﴿يُعَذِّبُ﴾ و﴿وَيَرْحَمُ﴾ اللّذَينِ جاءا بصيغة المضارع؛ فيفيدُ بذلك استمرارَ مشيئته سبحانه في عذابِ مَن يستحقّ التّعذيب، ورحمةِ من يستحقّ الرّحمة، وفي هذا تهديدٌ وردعٌ للكافر عن كفره، وتبشيرٌ للمؤمن وتثبيتٌ له على إيمانه.

الغرض من حذف مفعولي المشيئة:

اختصارٌ حسنٌ، إذ ما يُلحظ لا يُلفظ، فكلّ سليمِ الذّائقة يلاحظ المفعول في الفعل

حذفَ البيانُ القرآنيّ مفعولَي المشيئة في قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾؛ لبلاغة الإيجاز، إذ التقدير: يُعَذّبُ مَن يَشَآء أنْ يعذبهُ، وهم المشركون، ويَرْحَمُ مَن يَشاء أنْ يرحمَه، وهم المؤمنون[2]؛ "لأنّ مَفْعول المشيئة يُقَدَّرُ من جنسِ ما قبلَه، وحذفُه كاللّازم احترازًا عن العبث[3]، ولو أظهره لصارَ الكلام غَثًّا واللّفظ رَثًّا، ولا فائدةَ مقصودةٌ منه، فمن البلاغةِ الحذفُ في هذا المقام؛ لانصباب الكلام على مشيئة اللّه، فثابتٌ قرينةُ الحال عن ذكرِ المفعول[4]، لأنّه يلزمُ من وجودِ المشيئة وجودُ المُشاء[5]، كما أنّ حذفَ مفعولي المشيئة هو غالبُ الاستعمال فيهما، والفريقان معلومان من آياتِ الوعد والوعيد، فأصحابُ الوعدِ شاء اللّه رحمتهم، وأصحابُ الوعيد شاء تعذيبهم، فالّذين شاء تعذيبهم هم المشركون، والّذين شاء رحمتهم هم المؤمنون، والمقصود هنا هم الفريقان معًا، كما دلّ عليه الخطابُ العامُّ في قوله ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾[6].

(1) القونَويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البَيضاويّ: 15/ 36.
(2) الزَّمَخْشَريّ، الكشّاف: 3/ 449، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 35.
(3) القونَويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البَيضاويّ: 15/ 36.
(4) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 163.
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدَةُ الحُفّاظ: (شيأ).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 232.

دلالةُ العطف في قوله ﴿وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ﴾:

بيانٌ لكمالِ قدرته سبحانه في أنْ يجمعَ بين تعذيبِ من يشاء ورحمةِ من يشاء

في عطف قوله تعالى: ﴿وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ﴾ على قوله تعالى ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ بيانٌ لكمالِ قدرتِه سبحانه إذ جمعَ بين قدرته على تعذيبِ من يشاء بعدله، فلا يقدرُ أحدٌ بشفاعةٍ ولا بغيرها على الحماية منه، وعلى إثابةِ من يشاءُ بفضله، فلا يقدرُ أحدٌ على أنْ يمسّه بسوءٍ، أو أنْ يمنعَ عنه الرحمة، وفي هذا العطف كذلك جمعٌ بين التّرغيب والتّرهيب، فهو يهدّد سبحانه عباده أوّلًا بالعذابِ ليرتدعوا وليؤمنوا، ثم يُلوِّح لهم برحمته سبحانه ليرغِّبَهم في طاعته، ويُلفِتَهم إلى الإيمان به[1].

الغرض من تقديم العذاب على الرَّحمة:

تناسُبُ تقديم التَّرهيبَ بالتَّعذيبِ مع سياق إنذار الأنبياءِ السّالفِ ذكرُهم لأقوامهم

قدّم البيانُ الحكيم ذِكْرَ العذاب على الرحمة في قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ﴾ رغم أنّ القرآن يبدأ بذكر الرّحمة حيث ذكر الرّحمة والعذاب، كقوله: ﴿يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ﴾ [المائدة: 18]، ولكنّه قدَّمَ هنا العذاب مراعاةً للسّياق، وهو هنا سياقُ إنذارِ إبراهيم لقومه، ومخاطبة النّمرود وأصحابه، وأنّ العذابَ وقع بهم في الدنيا[2]، فقد أنذرَ إبراهيم قومه قائلًا: ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا﴾ إلى قوله ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، ومراعاةً للمقام، فالخِطابُ جارٍ مع مُنْكري البَعثِ الّذين حظُّهم فيه هو التَّعذيبُ[3]، أي اقتضتِ الحكمةُ هنا تقديم ذكر العذاب ترهيبًا وزجرًا للمشركين، ومراعاةً لكثرةِ من يُعذَّب[4].

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 18/ 11121.
(2) السّامُرّائيّ، أسرار البيان في التّعبير القرآنيّ، ص: 76.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 349، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 35، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 232.
(4) القونَويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البَيضاوِيّ: 15/ 36.

توجيه المتشابه اللّفظيّ في التّقديم والتّأخير:

من بلاغة أسلوبِ القرآنِ مراعاةُ السّياقِ في تقديم الأنسبِ له

قدّم البيانُ القرآنيّ في هذه الآية ذِكْرَ العذاب على الرّحمة مراعاةً للسّياق، وهو هنا سياق إنذارِ إبراهيم لقومه الكافرين بدعوته، المكذِّبين بالبعثِ، والمعرضين عن آيات الله، كما قدَّمها كذلك في آية أخرى فقط، وهي في سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ [المائدة: 40] كذلك مراعاةً للسّياق؛ إذْ تَقَدَّمَها حَديثٌ عَن حُكْمِ الحِرابَةِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟﴾ [المائدة: 33]، وعن حُكم السّارق والسّارقة: ﴿فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: 38] فكان المناسبَ تقديمُ العذاب على المغفرة[1].

بينما قُدِّمَتِ المغفرة على العقاب في كلّ القرآن، ومنها مثلًا قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ﴾ [البقرة: 284]؛ لوقوعها في سياقِ خطابٍ للمؤمنين، وحديثٍ عنهم وإقرارٍ من قِبَلهم بالسّمع والطاعة وطلبِ المغفرة، قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: 285]، فناسبَ ذلك تقديمُ المغفرة على العذاب رحمةً منه تعالى، وحَثًّا لعباده على المُسارَعَةِ إلى العبادة فهي من موجبات المغفرة[2].

بلاغةُ المقابلة في الآية:

تعميقُ الإحساسِ بعظمة الله وقدرته المطلقة وأنّه المنفردُ بالحكم

جَمعَ البيان الإلهيُّ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ﴾ بين لفظين متقابلين في المعنى هما ﴿يُعَذِّبُ﴾ و﴿وَيَرْحَمُ﴾ على سبيلِ الطّباق؛ ليلفتَ انتباهَ المخاطَبين إلى التّباينِ الشّديدِ بين الحالتين، ويجعلَ المعنى أكثرَ وضوحًا وتأكيدًا، ويُبرِزَ

(1) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/ 74، والكَرمانيّ، أسرار التّأويل في القرآن، ص: 87.
(2) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/ 74.

قدرةَ اللّه المطلقةَ في التّحكّم بمصائر النّاس، بما يجعله حقيقًا بالخشيةِ والرّجاء، وذلك يدلّ على أنّ اللّهَ سبحانه هو المنفردُ بالحكم الجزائيّ، وهو إثابةُ الطّائعين ورحمتُهم، وتعذيبُ العاصين والتّنكيلُ بهم[1]، وأنّه هو الحاكمُ المتصرّف الّذي يفعلُ ما يشاء، ويحكمُ ما يريد، لا معقِّبَ لحكمه، ولا يُسأل عمّا يفعلُ وهم يُسألون[2].

دلالة الواو في قوله ﴿وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ﴾:

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ﴾ عاطفةٌ، والجملةُ معطوفةٌ على جملة ﴿يُعَذِّبُ﴾[3]، بجامعِ أنّ الفاعلَ في هذا الموقفِ الجليل هو اللّهُ، فهو المعذِّبُ بعدله من يشاء، وهو الرّاحمُ بفضله من يشاء، وهو الّذي يَرجِعُ الخَلْقُ كلُّهم إلى حكمِه؛ ليكشفَ بواطنهم ويَقْلِبَ أحوالهم إلى جنةٍ أو إلى نار، وليؤكِّدَ بذلك قدرته على التّعذيب والإثابة، أي: بما أنّ معادكم إليه وحده وأنّ كتابَكم وحسابَكم لديه؛ فالعذابُ والرّحمة أيضًا بإرادته وتحت أمره! لا يُعْجِزُه أحدٌ، ولا يمتنعُ عليه أحدٌ.

مَعادُ الخلقِ إلى اللّه، فالعذابُ والرّحمةُ بمشيئته وتحت أمره

ويحتمل أنْ تكون استئنافية[4]، وتكون الجملةُ تقريرًا لإعادةِ الخلقِ الّتي سبقَ ذكرها، وتوطئةً لِما بَعْدُ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[5].

الغرض من تقديم الجارِّ والمجرور على عامله:

قدّم البيانُ القرآنيُّ الجارَّ والمجرور (إليه) على عاملِه ﴿تُقۡلَبُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ﴾؛ للتّعظيم[6]، وللاهتمامِ والتّأكيد؛ إذ ليس المَقامُ للحصْرِ؛ إذْ ليس ثمَّةَ اعتقادٌ مَردودٌ، وفي هذا إعادةُ

لَفْتُ اهتمامٍ بما سينقلب إليه العبادُ مؤمنُهم وكافرُهم

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 628.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 270.
(3) الهَرَرِيّ، حدائق الرَّوح والرَّيْحان: 21/ 382.
(4) بهجت عبد الواحد صالح، الإعراب المفصّل لكتاب الله المرتّل: 9/ 28.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 353.
(6) بهجت عبد الواحد صالح، الإعراب المفصّل لكتاب الله المرتّل: 9/ 28.

إثباتِ وُقوعِ البعثِ، أي: "تقريرٌ للإعادة بعد سوقِ برهانها"[1]، وتعريضٌ بالوعيدِ[2]، وبما يكون في هذا اليوم من انقلابِ أحوالهم إلى جنّةٍ أو إلى نار، وانكشافِ بواطنهم بما يردعهم عن كفرهم، ويلفتهم إلى التّوحيد الخالص.

سِرّ إيثار التّعبير بالفعل ﴿تُقْلَبُونَ﴾ مادة وصيغة:

تَضَمُّنُهُ معنيين الأوّل الرّجوع، والثّاني رجوعٌ فيه تَحَوُّلٌ مِنْ حالةٍ إلى أُخرى غيرِها

آثرَ البيانُ القرآنيُّ لفظ ﴿تُقْلَبُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ بدلًا من (تُرْجَعونَ) لِتَضَمُّنِهِ معنى مضافًا على الرّجوع الّذي هو عودةٌ للحالةِ الأوّلى الّتي كان فيها، والمعنى هو صرفُ الشّيء عن وجهٍ إلى وجهٍ آخر[3]، والانقلابُ من حالةٍ إلى حالةٍ عكسِها[4]، حيث لا يملكُ أحدٌ فيه النَّفعَ والضُّرَّ إلا اللّه؛ أي: ليس مقصود الآية هو التّأكيدُ على إثباتِ الرّجوع، أي: البعث والجزاء والحساب، وإنّما المقصودُ هو أنّ الفريقينِ من المؤمنينَ والكافرينَ يَرْجِعوْنَ إلى اللّه فتَنْقَلِبُ حالُهم إمّا إلى جنةٍ أو إلى نار، فبعدَ النّعيم الّذي كان يجدهُ الكافرُ في الدنيا يجدُ العذابَ الأليم، وبعد الشّقاءِ والظلمِ الّذي كان يعانيه المؤمنُ يجدُ النعيمَ المقيم، أو أنْ تنقلبَ بواطنُهم فتصبحَ ظاهرةً كما ينقلبُ باطن الثّوب فيصبح ظاهرًا، في يومٍ تُبلى فيه السَّرائِرُ وتنكشفُ فيه البواطنُ وتتجلى أسْرارُ الإنسان الخفيّة، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾ [الطارق: 8 - 9] ومِنْ ثَمَّ يكون لفظ ﴿تُقْلَبُونَ﴾ أنسبَ للسّياق الّذي يذكرُ قدرةَ اللّهِ المطلقةَ على تعذيبِ من يشاء، وإثابةِ من يشاء في كلّ ما أسَرّوه أو أعْلَنوه.

كما أنّ لفظ ﴿تُقْلَبُونَ﴾ يدلُّ كذلك على الغَصْب والانقياد عُنْوةً؛ وكأنّه يقول لهم: مهما بلغَ بكم الطّغيان والجبروتُ والتّعالي بنعم

(1) القونَويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البَيضاوِيّ: 15/ 36.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 232.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قلب).
(4) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (قلب).

اللّه، فلا بُدَّ لكم من الرّجوعِ إليه، والمثولِ بين يَديْه، فتذكَّروا هذه المسألة جيدًا، حيث لا مهربَ لكم منها؛ لذلك كان مناسبًا أنْ يقول بعدها: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[1].

وقد عبّر البيانُ القرآنيُّ بصيغة الفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ﴾؛ لإفادة التّصوير؛ أي تصوير العنف والشّدّة الّتي يلاقونها في رجوعهم إلى ربّهم للحساب، سواءٌ بانقلابِ أحوالهم وما كانوا عليه في الدّنيا إلى قبرٍ وبعثٍ وحشرٍ وحسابٍ تنقلبُ فيه بواطنهم من الخفاء إلى الظّهورِ، وتنقلب فيه أحوالهم من الكبرِ والغرور إلى الذّلّة والضّمور، ومن مُتعِ الدّنيا إلى جحيمِ الآخرة، وذلك ليحملهم هذا التّصوير على استدراكِ أحوالهم والتّوبة إلى اللّه قبلَ فواتِ الأوان.

بيانُ المخاطَب بالفعل ﴿تُقۡلَبُونَ﴾:

الخلقُ كلّهم ينقلبون إلى حكمِ اللّه من جنةٍ أو نار

الخطابُ في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ﴾ عامٌّ، والمخاطَبون هم أصحابُ الوعد الّذين شاء اللّه رحمتَهم وهم المؤمنون، وأصحابُ الوعيد الّذين شاء اللّه تعذيبَهم، وهم المشركون، فالفريقان من المؤمنين والمشركين كلُّهم ينقلبون إلى حكمِ اللّه من جَنّةٍ أو نار[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العذاب والإهلاك:

العذابُ أعمّ من الإهلاك

العذابُ أعمّ من الإهلاك من جهة أنّ العذابَ قد يكون إيجاعًا شديدًا، ونكالًا وعُقوبَةً، وقد يكون إهلاكًا[3]، فأصلُ العذاب هو الضَّرْبُ ثُمَّ اسْتُعيرَ ذَلِكَ في كُلِّ شِدَّةٍ[4]، وقيل أصلهُ من المنعِ، لمنعه من معاودةِ ما عوقبَ عليه[5]، بينما الإهلاكُ هو أشدُّ العذاب؛ إذ

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 18/ 11121.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 232.
(3) الرّاغب، المفردات، والزّبيديّ، تاج العروس: (عذب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عذب).
(5) السّمين الحلبيّ، عُمدَةُ الحُفّاظ: (عذب).

هو عذابُ الاستئصال والإبادة والإفناء مؤاخذةً، يُقال: أهلكَ اللّه الظالمين أي جعلهم يَهْلِكون ويموتون، وأبادهم فلم يترك لهم أثرًا[1]، فالإهلاكُ يُطلق على الموت، وعلى وجوبِ النّار والخلود فيها[2]، فأصلُ الهلاك يدلّ على الكَسْرِ والسُّقوط[3]، وقد جاء التّعبير بالعذاب هنا تناسبًا مع عموم السّياق؛ إذ هو عامٌّ يشملُ العذاب بالإيلام ويشملُ عذابَ الإهلاك.

الرّحمة والعفو:

الرّحمةُ من الله إحسانٌ وإنعامٌ وإفضالٌ منه للمرحوم، أما العفو فإسقاط للعقوبة

أصلُ الرّحمة الرّقةُ والعطفُ والرّأفةُ[4]، والرَّحْمَةُ في بَني آدَمَ: رِقَّةُ الْقَلْبِ وعَطْفُهُ، ورَحْمَةُ اللَّهِ: عَطْفُه وإحسانُه ورِزْقُهُ[5]، والرَّحْمَةُ رقّةٌ تقتضي الإحسانَ إلى المَرْحوم، وإذا وُصفَ به الباري فليس يُراد به إلّا الإحسانُ المجرّدُ دون الرّقّة، وعلى هذا روي أنّ الرَّحْمَةَ من اللّه إنعامٌ وإفضال[6]، وأمّا العفو في أصله فهو تَرْكُ الشّيْءِ، والعفو يقتضي إسقاطَ اللّوم والذّمّ، وتَرْكَ عُقوبَةِ المُسْتَحِقِّ، وعَفْوُ اللَّهِ تعالى عنْ خَلْقِهِ: تَرْكُهُ إيّاهُمْ فلا يُعاقِبُهُمْ فضْلًا مِنْهُ[7]، وقيل: العَفْوُ: المَحْوُ، مِن عَفَتِ الرّياحُ الأثَرَ، أي دَرَسَتْه ومَحَتْه[8]، إذن الرّحمةُ من اللّه إحسانٌ وإنعامٌ وإفضالٌ منه للمرحوم، ولا يُشترطُ أنْ تكون بعد ذنْبٍ، بينما عفو اللّه تركُ عقوبةِ المستحقّ فضلًا منه ويكون بعد ذنب، فالرّحمةُ أعمّ فهي تشملُ المذنب وغير المذنب، وقد ناسب التّعبير بها هنا إذ السّياقُ عامٌّ فهو خطابٌ للجميع.

(1) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ، وأحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (هلك).
(2) الرّاغب، المفردات، والزَّبيديّ، تاج العروس: (هلك).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هلك).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رحم).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (رحم).
(6) الرّاغب، المفردات: (رحم).
(7) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عفو)، والعسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 235.
(8) الزَّبيديّ، تاج العروس: (عفو).

الانقلاب والرّجوع:

الانقلابُ في أصله رَدُّ شَيْءٍ مِنْ جِهَةٍ إِلَى جِهَةٍ[1]، أي: تغيُّرُ حاله إلى عكسِ ما كان عليه، كقَلْبِ الثَّوب، والانْقِلابُ: الانصراف[2]، والانْقِلابُ إلى اللَّهِ ﷻ: المَصيرُ إليه، والتَّحَوُّلُ[3]، وأمّا الرّجوعُ فهو العَوْدُ إلى ما كان منه البَدْءُ، وتقديرُ البَدْءِ مكانًا كان أو فعلًا، أو قولًا، وبذاته كان رجوعُه، أو بجزءٍ من أجزائه، أو بفعلٍ من أفعاله[4]، وقد جاء التّعبير بالانقلاب متناسبًا مع الطّباق في الآية (يعذّب، يرحم)، ومع انقلابِ الإنسان من الدّنيا إلى الآخرة، وتغيُّرُ حالِه وتحوُّلُه من حالٍ إلى حال.

الانقلابُ تَغَيُّرٌ وتحوّلٌ من حالٍ إلى حال، والرّجوعُ عَوْدٌ إلى الحال الّتي كان منها البَدْءُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قلب).
(2) الرّاغب، المفردات، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ، وأحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (قلب).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والزَّبيديّ، تاج العروس: (قلب).
(4) الرّاغب، المفردات: (رجع).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والأربعون،
سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 42 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-93-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 42 : المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-93-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2154237 بتاريخ 2024/12/25م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»